مقال: فان جوخ .. الحياة، والخلود

إحدى أكثر الظواهر الفنية إستعصاءً على الفهم والتفسير هي ظاهرة فينسنت فان جوخ فقد أصبح هذا الرسام رمزاً للعظمة الفنية وتحول من رائد للرسم الحديث إلى أحد أهم رموز الثقافة المعاصرة.

وقد تحولت حياة فان جوخ بعد موته إلى أسطورة؛ وتحول فقره وتشويهه لنفسه وإنتحاره، إلى لغز، وبات الكثيرون ينظرون إلى قصة جنونه بما يشبه الاحترام والقداسة.

وفي تلك المناسبات النادرة عندما تكون إحدى لوحات فان جوخ مطروحة للبيع في المزاد، فإنها تكسر الأرقام القياسية وتحصد عشرات الملايين من الدولارات.

ومع ذلك فإن اللوحة الوحيدة التي قبل إنه باعها أثناء حياته حققت له حوالي عشرين دولارا فقط؛ وقبل ربع قرن بيعت إحدى لوحات سلسلة عباد الشمس بمبلغ ٤٠ مليون دولار، وأزهار السوسن ب٥٣٣ مليون دولار، كما اشترى ملياردير ياباني يدعى ريو سايتو بورتريه الدكتور عاشيه بمبلغ ٨٣٣ مليون دولار، وكان وكيل المليونير قد قال إن موكله سبق وأن رأى اللوحة في متحف المتروبوليتان ووقع في حبها من النظرة الأولى، والغريب أن سايتو أوصى بأن تحرق اللوحة وتدفن معه عندما يموت، ومنذ وفاة هذا المليونير الياباني غريب الأطوار عام ١٩٩٦م، إختفت اللوحة تماماً ولا أحد يعرف إلى الآن ما الذي حل بها، ويبدو أن سايتو يؤمن بقاعدة "احرق ما تحب وأحب ما تحرق"، وإحراق لوحة، أو حتى بيت، قد يكون أعلى درجات حب التملك.

وقد رسم فان جوخ بورتريه الدكتور غاشيه في يونيو من عام ١٨٩٠م، أي قبل انتحار الرشام بشهر ونصف، والبورتريه يصور طبيبه الخاص وهو يسند رأسه على يده بينما

يمسك بيده الأخرى حافة الطاولة التي يستقر فوقها كتابان وزجاجة تحتوي على نبات علاجي، وكل جزء من هذه اللوحة مشحون بالمعنى، كما أنها تضج بالإيقاعات الثقيلة وضربات الألوان الجريئة التي تميز فان جوخ؛ وتعبيرات غاشيه الحزينة ليست سوى انعكاس لحزن فان جوخ نفسه بينما يرمز النبات لتخصص الطبيب.

والمعروف أن اللوحة خضعت للترميم مرتين في الخمسينيات، وهو أمر أسهم في خفض قيمتها وفقدانها معظم خصائصها، إذ لا يظهر فيها سوى جزء يسير من آثار فرشاة وأسلوب فان جوخ المتفردين.

هذا وأثناء حياته لم يكن باستطاعة الرسام بيع أي من أعماله، وفي الوقت الذي انتحر فيه وهو في سن السابعة والثلاثين، كانت لوحاته تعتبر بلا قيمة أو أهمية.

لكن في ألمانيا، كان ينظر إلى فان جوخ على أنه بطل نيتشوي كانت لوحاته تصرخ في رعب إلى السماء مؤذنة ببداية عصر جديد يحل فيه الفن محل الإيمان على حد وصف أحد النقاد هناك.

وقبل الحرب العالمية الأولى، كان الألمان يعرفون فان جوخ جيداً، وكانت أعماله تعرض في عدد من متاحفهم، وهناك منهم من درس وحلل أعماله في سياق سياسي كما نشأت هناك طائفة تبجله وتقدس فنه.

وأسعار لوحات فان جوخ القياسية يضعها البعض في سياق الرواج الأوسع الذي تحققه أعمال الفن الحديث، فقد بيعت لوحة الصرخة عام ٢٠١٢م بمبلغ ١٢٠٠ مليون دولار، وإذا كان هناك مؤشر ما لما حدث، فهو أن حمى اللهث وراء الفن الحديث لا يبدو أنها تتراجع أو تخف.

ولكن، وبصرف النظر عن الأسعار والاتجاهات الفنية، فإن السؤال الأهم الذي يفرض نفسه هو كيف أستطاع هذا الهولندي المضطرب، وريث تقاليد الرسم التي تعود إلى رمبراندت وهولس وفيرمير، أن يضل الطريق، بعيداً عن جذوره؟ ولماذا لم يكن له لمحة فنية فرنسية، خاصةً أنه أمضى جزءا كبيرا من حياته في فرنسا؟

وقد تكون أفضل إجابة على السؤال الأول هي أن فينسنت كان إلى حد كبير مفتقرًا إلى تدريب رسمي في الفن، ولو كان قد أظهر أدنى قدر من الموهبة في سنواته البكرة، لكان قد ذهب إلى مدرسة للفنون الجميلة، حيث يمكن لأي شرارة عبقرية أن ترعى وأن تحتضن بطريقة منهجية، ولو أنه لم يتعرض لتأثير الفنانين الانطباعيين ودرس فترة وجيزة معهم في العام، لكانت أعماله المبكرة متواضعة للغاية؛ هذا وقد كان أول عمل واعد ظهر له هو أكلوا البطاطس، وكان ذلك في العام ١٨٨٥م، ولولا الطبيعة الإنسانية المتعاطفة لهذه اللوحة، لاعتبرت هي أيضا عملاً عادياً، ولكن الذي فعله فان جوخ لم يكن موجوداً في أي مكان من قبل، هو واستخدامه الرائع للألوان والذي سيحرر في وقت لاحق الرسم والرسامين من إملاءات اللون المحلي.

والتفسير الثاني لظاهرة فان جوخ هو طبيعة الرجل نفسه، فقد كان ابناً لمبشرين هولنديين، وكان في حياته البكرة مخموراً بالدين، لذا فإن الهولنديين مسئولون بقدر ما، عن يأس وبؤس هذا الإنسان المسكين، فينسنت نفسه لا بد أن يلام على استنزافه لطاقته وقواه في سعيه وإصراره الذي لا ينتهي على تعذيب نفسه.

في القرن العشرين، كان فان جوخ يوصف بأنه عبقري أسيء فهمه وبأنه قديس وشهيد وبطل وأيقونة دائمة للثقافة الشعبية، والمعجبون به يسافرون مسافات طويلة كي يروا

أعماله الأصلية، والحجاج يزورون قبره ويذهبون إلى متحفه كي يقولوا كنا هناك، بعضهم يظل في المتحف ساعة أو ساعتين، والبعض الآخر يبقون هناك طوال اليوم.

والحقيقة أن لا شيء مستغرب في وصف فان جوخ بالعبقري، لكن وصفه بالقديس والبطل مسألة فيها نظر، ولا يخفى أن السمة الأكثر وضوحًا في شخصيته كانت سرعة غضبه، وهي ولا شك سمة مرضية، فهو لم يكن أبدًا راضيا عن ذلك أو عن نفسه ولا عن أي شخص آخر، فكان فان جوخ أيضًا شخصاً غير مستقر وغير اجتماعي، لم يكن يتقبل النقد أبداً ولم يكن يتسامح مع أي رأي مخالف له، كما لم يكن يأخذ نصيحة من أحد ولم يكن يثق بأحد، بل كان يشكك في كل شخص تقريبا.

ومع ذلك، فخلال أربع سنوات فقط، حصل التفجر الفعلي في موهبته طوفان هادر من الألوان الجريئة والحية مع الحد الأدنى من مهارات الرسم حدث هذا في الأشهر القليلة التي كان يدرس خلالها في الأكاديمية البلجيكية.

والسبب الآخر الذي يفسر ظاهرة فان جوخ هو ذلك المزيج من التعاسة والجنون والتحرر من القمع الأكاديمي، كان ذلك شراباً غريباً، لكنه كان قوياً وفعالاً، وقد قدر لهذا المزيج أن يغلي أكثر فأكثر إلى أن وصل إلى ذروة غليانه ذات يوم حزين في حقول القمح.

وفي العام ١٩١٠م، وكان قد مضى على وفاة فان جوخ عشرون عاما، وصلت إلى باريس أول مجموعة من الحجاج الذين جاؤوا لتحية الرسام، كانوا من المثقفين اليابانيين الذين ينتمون لإحدى الطوائف هناك، وكان دافعهم للزيارة شعورهم بأنهم كانوا يفهمون فان جوخ الإنسان أكثر من فنه، كانوا يرون فيه نموذجا جديداً للفقر الفني العصري، ومثالاً للفنان الذي لا يستطيع بيع لوحاته فحسب، ولكنه مقتنع أيضا بعبثية جهوده فييأس ويكسب من وراء هذا، ليس المرارة وإنما المتعة الحقيقية، وهذا استنتاج مثير للاهتمام.

وكان هؤلاء اليابانيون قد قاموا في وقت مبكر بزيارة شخصية للدكتور عاشيه طبيب فان جوخ غريب الأطوار، والأرملة ثيو شقيق الرسام، كان غاشيه ينظم في بيته حفلات استقبال لزواره، وكان قد اشترى أكثر من عشرين لوحة كان فان جوخ قد رسمها خلال الأيام السبعين التي قضاها تحت إشرافه.

وبول غاشيه ابن الطبيب، كان يقدم نفسه للزوار وللناس باعتباره خبيراً في الأشهر الأخيرة من حياة جوخ، وكان يستضيف زوارا يابانيين وأوروبيين، رغم أن اتصاله بالرسام كان ضعيفًا، وعندما أقدم فان جوخ على الانتحار، كان غاشيه الابن لا يتجاوز الثامنة من عمره، وكان يحصل على رزقه من عرض وبيع اللوحات التي كان والده قد اقتناها، ومع ذلك كان الابن يستمتع بحياته بإعتباره صانع أسطورة فان جوخ.

واما ضاحية أوفير سير واز الباريسية، حيث عاش وعمل فان جوخ توفر مكاناً يمكن للمرء أن يحتفل فيه بالحياة الفعلية وبالأسطورة الشيدة للفنان، لكن التأثير الأقوى في صنع أسطورته أتى من الأفلام السينمائية التي صورت حياته؛ ففي فيلم أحلام للمخرج الياباني أكبرا كوروساوا، يمشي رجل في الطبيعة الأولى التي تتألف في الفيلم من صور مكبرة من لوحات فان جوخ، وفي أفلام أخرى، يقدم الرسام كنموذج أعلى للمعاناة والإبداع والاغتراب وتحد ما بعد الموت.

غير أن أفضل فيلم أنتجته هوليوود عن حياة فينسنت كان فيلم شهوة للحياة للمخرج فينسنت مينيللي الذي يقدم فان جوخ إنساناً عبقرياً وفناناً مجنوناً، من خلال استخدام صور قوية وشخصيات دراماتيكية، في الفيلم يظهر الرسام وهو يطلق النار على نفسه بينما يرسم لوحته الشهورة حقل قمح مع غربان اللوحة تصور سماء مظلمة ومنذرة بالخطر مع طريقين متشعبين ينتهيان في نقطة ما من الحقل، علماء النفس حللوا رمزية

هذا المكان مرارا وتكهنوا بأنه يمثل تساوي فرص الحياة والموت، فيتم إتهام فان جوخ بالأوهام وحتى باحتمال إصابته بالشيزوفرينيا.

هذا وفي أحد أيام شهر يوليو من عام ١٨٩٠م، أطلق فان جوخ النار على نفسه من مسدس صغير، وقد أخطأت الرصاصة قلبه وبقي يومين في حالة غيبوبة إثر معاناته من نزيف دموي وعدوى ولم يعالج في حينه، الأمر الذي يثير الشكوك حول براعة غاشية الطبية.

واما أحلام للمخرج الياباني أكبرا كوروساوا، يمشي رجل في طبيعة أول التي تتألف في الفيلم من صور مكبرة من لوحات فان جوح، وفي أفلام أخرى، يقدم الرسام كنموذج أعلى للمعاناة والإبداع والاغتراب ومجد ما بعد الموت.

ومنذ رحيله، أثيرت الكثير من الأسئلة والشائعات عن فينسنت وعن حياته وموته، من قبيل ما يقال الآن عن أن موته المفاجئ لم يكن انتحاراً، وإنما نتيجة حادث مدبر، لكن مما لا شك فيه أن تمجيد فان جوخ ورفعه إلى مستوى القديسين والأبطال رافقه بالتوازي اختفاء صورة الإنسان الحقيقي الذي ابتلعته الأسطورة.